الباب السابع

المقاومة الإسلامية في العهد القيصري

- الإمام منصور الشيشاني.
- الخليفة العثماني يستنجد بالإمام منصور.
- خط القوزاق العظيم ــ ألكسندر ويرمولوف.
- حرب القفقاز الأولى ــ الإمام غازي محمد.
- الإمام الأسطورة محمد شامل الداغستاني ١٧٩٥: ١٨٧١ م ــ من المشيخة إلى الإمارة.
- جنود شامل يقاتلون الروس وهم يرتلون القرآن الكريم.

نتائج حرب القفقاز الأولى.

الباب السابع

المقاومة الإسلامية ضد الروس في العهد القيصري

الإمام منصور الشيشاني :

كانت استعادة القسطنطينية عاصمة النصرانية الأرثوذكسية من أيدى المسلمين ، أحد الأهداف الرئيسية للقيصرة كاترينة الثانية ، لذلك كان الغزو المنظم لمنطقة القوقاز في نهاية القرن الثامن عشر . قامت كاترين قيصرة روسيا بطرد الأتراك من جورجيا وأبخازيا وشبه جزيرة القرم ، ثم أرسلت قواتها لاحتلال بلاد الشيشان والأنجوش والقبرطاى ، ولكن قواتها التي وصلت إلى بلاد الشيشان عام ١٧٨٥م منيت بهزائم سلحقة على يد قوات الإمام منصور الشيشاني ، الذي ما إن سمع بوصول القوات القيصرية الروسية لشمال القوقاز ، حتى خرج من قريته في بلاد الشيشان ، يدعو إلى الجهاد المقدس ضد الغزاة الروس.

كان الشيخ منصور الشيشاني ، قد درس القرآن والعلوم الدينية في الداغستان ، ثم عاد إلى بلاد الشيشان يدعو إلى التمسك بالشريعة الإسلامية ، مناديا بأن فيها فلاح المسلم في الدنيا والآخرة ، وكانت معرفة الشيخ بقراءة القرآن ، وإلمامه بالشريعة الإسلامية من خلال العلوم الدينية التي تلقاها ، وراء مكانته في القوقاز ، خاصة أن هذه المعرفة قد صاحبها أخلاق نبيلة مثل التواضع والصدق والأمانة في التعامل وبساطة العيش .

لقيت دعوة الجهاد التى أطلقها الإمام منصور الشيشاني ، للقتال ضد الروس تجاوبا كبيرا من شعوب شمال القوقاز ، فانضمت إليه شعوب الداغستان والشراكسة والنوغاى التترية الأصل . استطاع الإمام بقواته هذه إلحاق هزائم عدة بالقوات الروسية القيصرية ، طوال ست سنوات من عام ١٧٨٥: ١٧٩١م. ولم يمكنها من احتلال أى منطقة في شمال القوقاز .

الخليفة العثماني يستنجد بالإمام منصور :

وفي عام ١٧٩١م كانت الجيوش القيصرية تحاصر الأتراك في ميناء أنابا على البحر الأسود ، فأرسل الخليفة العثماني ، إلى الإمام منصور يطلب منه نجدة الأتراك المحاصرين في أنابا ، فتقدم الشيخ منصور بقواته ، وهاجم القوات الروسية من الخلف واستطاع فك الحصار عن أنابا ، مما سمح للخليفة بإرسال قوة عسكرية قوامها ثلاثون ألفا دعمت الصمود التركي أمام القوات القيصرية .

أساء القائد التركي معاملة الإمام منصور ورجاله ، لغيرته الشديدة من الشعبية الجارفة التي كان الإمام يتمتع بها بين شعوب القوقاز بما فيهم الشراكسة الذين كانت تركيا تعتبرهم من رعاياها . أرسل الإمام منصور ، رسالة احتجاج إلى السلطان العثماني ، فأرسل إليه رسالة اعتذار ، وطلب منه العودة لأنابا التي عاد الروس لمهاجمتها بعد أن حشدوا جيشا كبيرا لفتحها . وعاد الشيخ منصور على رأس قواته لمحاربة الروس ، ولكن القائد التركي ارتكب جريمة الخيانة العظمى ، وخرج سرا من القلعة التى تحصن فيها مع أتباعه وحاشيته حاملا معه الذهب والأموال الوفيرة ، وانضم للقوات الروسية ، وكان لهذه الخيانة أثر كبير على المدافعين الأتراك رغم محاولات الإمام منصور لرفع الروح المعنوية والقتالية .

اندفع الروس إلى داخل القلعة بعد أن استسلم القائد التركي لهم وفتح أبواب القلعة، وبقي الإمام يقاوم مع رجاله ، إلى أن وقع في الأسر بعد أن سقط جريحا وسقط منه سيفه، ونقل مقيدا بالسلاسل إلي بلاط كاترين في سان بطرسبرج عاصمة القياصرة حيث طلبت القيصرة مشاهدته أسيرا، وهو الذي ألحق بجيوشها الهزائم المنكرة في شمال القوقاز، وبعد أن نظرت كاترين إلى الإمام منصور مكبلا بالسلاسل الحديدية ، أمرت بسجنه في جزيرة نائية حيث تم قتله عام ١٧٩٤م. بعد أن هاجم حراسه ، وطعن أحدهم بخنجر خطفه من بعضهم.

خط القوزاق العظيم :

أقامت القيصرة الروسية كاترين ، القلاع والمستوطنات على امتداد نهر تيرك ونهر كولان ، ولم يتم لها احتلال القوقاز الشمالي إلا بعد بناء هذا الخط الذي أطلق عليه اسم خط القوزاق العظيم ، والذي امتد من بحر قزوين شرقا إلى البحر الأسود غربا .

وبعد وفاة كاترين تسلم حكم روسيا القيصرية ابنها بول الذي أمر بسحب الجيوش الروسية من شبه جزيرة القرم ومن أذربيجان وداغستان الشرقية ، ولذلك لم يعمر طويلا، فقد قتل خنقا بعد مؤامرة ضده ، لأنه كان ينوي التحالف مع نابليون امبراطور فرنسا ضد انجلترا لكي يقوما الاثنان بغزو الهند وانتزاعها من الانجليز ، ثم غزو تركيا العثمانية واستعادة القسطنطينية التي وعد نابليون أن يقدمها هدية للقيصر بول .

جاء بعد القيصر بول ابنه الكسندر الأول ، وكان مثل جدته يحلم باستعادة القدس من المسلمين ، وإحياء الأرثوذكسية فى القسطنطينية ، ولكن بدون التحالف مع نابليون الذي قام بمهاجمة روسيا ، فانشغلت روسيا في عهده بالحرب مع نابليون ، وتركت القوقاز الشمالي والجنوبي خارج سيطرتها ، ولكن بعد انتصارها عليه ، أصبحت أقوى دولة في أوروبا ، لذلك طمع القيصر فى غزو الهند ثم استرجاع القسطنطينية والقدس من المسلمين .

الكسندر الأول وبرملوف :

شرع الكسندر الأول بتحقيق هذه الأطماع عام ١٨١٨م. وقام بتعيين " برملوف " قائدا عاما على القوات الروسية في القوقاز ، وكانت أول أعماله بناء مدينة " غروزني " عاصمة الشيشان الحالية على أنقاض بلدة سونجا غالا الشيشانية ، وأطلق عليها هذا الاسم، ويعني المهدد أو المرعب ، و الذي كان لقبا للقيصر الروسي إيفان الرهيب أو المرعب، وهو أحد القياصرة الأوائل الذين أرسوا دعائم روسيا القيصرية في سنواتها الأولى، وسونجا هو اسم النهر الذي يخترق بلاد الشيشان في مدينة غروزني ، وغالا بالشيشانية تعني القلعة أو الحصن .

وبعد بناء غروزني بدأ برمولوف في اخضاع الشيشان لأنهم كانوا ألد أعداء روسيا القيصرية في شمال القوقاز منذ أيام كاترين الثانية ، واستخدم القادة الروس سياسة الأرض المحروقة ، فدكوا القرى و البلاد الشيشانية ، وسيطروا على الأجزاء السهلية منها، وهرب الشيشانيون إلى الجبال التي تشكل القسم الأكبر من البلاد ، وشنوا من هناك حروب عصابات ، أطلق عليها الروس اسم حرب الخارجين على القانون .

وأنهكت الحرب برمولوف ، ولم يستطع إخضاع المنطقة ، وتكبدت قواته الخسائر الفادحة ، بعد أن استمرت المقاومة من الجبال ، ولم يستطع إيقافها ، فعزله القيصر نيقولا الثاني عام ١٨٢٧م.

فيما بين عامي ١٨٢٦و ١٨٢٩م. تمكنت جيوش القياصرة من السيطرة على المناطق السهلية ، وتم طرد الإيرانيين والأتراك من أذربيجان وجورجيا وأرمينيا وشبه جزيرة القرم ، بل لاحقت الإيرانيين إلى تبريز ، والأتراك إلى الأناضول ، واستعدت روسيا لغزو الهند بعد نزهة عسكرية في بلاد الشيشان استغرقت ثلاثين سنة متواصلة من الحرب لضروس، فقد الروس خلالها أكثر من نصف مليون جندى وضابط وجنرال. هذه الحرب لضروس سميت بحرب القوقاز الأولى، كان خصم روسيا القيصرية فيها هو الحركة الإسلامية التي نشأت في قرية غمري بإقليم أفاريا بالداغستان، والتي أسسها الإمام غازي محمد الداغستاني عام ١٩٢٨م.

حرب القوقاز الأولى :

عندما تراجع الفرس والعثمانيون أمام تقدم الروس ، اعتمد المسلمون في القوقاز على أنفسهم ، واستلهموا عقيدتهم الإسلامية ورغبتهم في الجهاد ، واندفعوا للموت في سبيل الله ، فقوى أمرهم ، وشكلوا حكومة في بلاد الداغستان كان على رأسها العلماء الذين استنهضوا همم المسلمين . بعد أن أعلنوا التزامهم بأحكام الشريعة الإسلامية، وبأن

المعاملات بين الناس ستكون على أساس منها ، وليس على أساس العادات والأعراف القديمة المعمول بها من قبل .

الإمام غازي محمد :

تصدت الحركة الإسلامية للقوات الروسية ، وأعلن الإمام غازي الداغستاني الجهاد المقدس ، بعد أن دعا القفقاسيين لنبذ الخلافات ،وانطلق بدعوته من داغستان والقبائل المجاورة ، حتى انتشر خبره بين القبائل المجاوره ، فالتفت حوله وهو يدعو للجهاد ، وكان نائبه ومساعده الشيخ شامل المعروف بشجاعته وجلادته وصلابته .

استمر الإمام غازي، يصطدم بالقوات الروسية ، يلحق بها الهزائم تلو الهزائم، إلى أن تمكنت قبيلة من قبائل الأنجوش المشايعة للروس من فتح طريقا أمام القوات الروسية، وانتهى الأمر بمحاصرة الإمام غازى ومن معه، واستمر الحصار أياما والمدافع الروسية تدك مواقعه حتى أتت عليها جميعا ولم يبق معه في اليوم الأخير إلا ستون مجاهدا، دارت بينهم وبين القوات الروسية معركة شرسة من بيت لبيت ، وفي النهاية تمكن الروس من القضاء عليهم عدا اثنين أحدهما الشيخ شامل الذي استطاع الإفلات بعد أن أصيب بجرح بالغ، اما الإمام محمدغازي فقد استشد في المعركة وسيفه بيده .

وحمل راية الجهاد من بعده حمزه بك ، وبينما هو يصلي في قرية خمزاخ اغتاله أحد الخونة بعد أن قاد حركة الجهاد قرابة السنتين . وجاء بعده الشاب الجبلي الشيخ محمد شامل ليتحمل أعباء الجهاد ضد الروس .

الإمام الأسطورة محمد شامل الداغستاني :(١٧٩٥: ١٨٧١م.)

ولد الشيخ محمد شامل ، في إحدى قرى داغستان ، وينتمي إلى قبائل لزكي الداغستانية الذين يتكلمون ويكتبون العربية ، نشأ في قرية أوار من بلاد الكرج بالقفقاس ، ودرس النحو والشريعة الإسلامية والخطابة واللغة العربية ، وبرزت أهميته في الحركة الإسلامية بعد الاشتباك مع الروس ، بقيادة الإمام محمد غازي ، في حرب مقدسة ، وانتخب إماما وقائدا وسرعان ما وحد القوى المجاهدة ، وقادها في حملة ضد الروس في الشيشان والقوقاز .

من المشيخة إلى إمارة الجهاد الإسلامي :

يقول عنه الأمير شكيب أرسلان : أنه كان على نمط المجاهد عبد القادر الجزائري، كلاهما خرج من المشيخة إلى قيادة الجيوش وإمارة الجهاد . وكما يذكر برنارد لويس أن الإمام شاملا بطل المقاومة القفقاسية هو ثالث ثلاثة ، برزوا في عصر واحد، تجمع بينهم كثير من الملامح المشتركة فكلهم قادوا حركة شعبية ضد المشركين، وثلاثتهم كانوا زعماء دينيين وهم أحمدبريلوي في الهند ، وشامل في داغستان ، وعبد

القادر في الجزائر ، ولقد غلبوا على أمرهم للفرق الهائل بين قوتهم الصغيرة وقوة أعدائهم الضخمة.

دعا الشيخ محمد شامل، جميع رؤساء القبائل، وكبار القضاة إلى اجتماع في منطقة وسط جبال القوقاز ، عام ١٨٣٤م. وتباحثوا في الأمر، وكان دور الشيخ شامل أكثر أهمية، إذ كانت القبائل حتى ذلك الحين تعيش كل قبيلة منفصلة عن الأخرى، ولا تربط بينها سوى وحدة الدين الإسلامي، فبادر بوضع القوانين والقواعد اللازمة للارتقاء بالمقاومة الاسلامية ضد الروس، وحول القبائل إلى شعب واحد ، ثم قسم مناطق نفوذه إلى أقسام عدة ، بلغت في أوج قوته إلى خمسة وعشرين قسما ، ثم وضع لكل قسم نائبا لحكومته يأخذ على عاتقه الأمور الشرعية والعرفية والعسكرية ، وجباية الضرائب وتنفيذ القوانين ، وأنشأ ديوانا أعلى للقضاء كان مقره في الشيشان ، مهمته تنفيذ القوانين الشرعية ، وأنشأ المصانع لإنتاج الأسلحة والذخائر .

وضع الشيخ شامل تنظيما لحكم البلاد تحت رئاسته ، والتفت شعوب القوقاز كلها حوله بعد أن نجح في ترسيخ أحكام الإسلام في نفوس المسلمين ، وتربيتهم التربية الروحية الجهادية في سبيل الله .

لذلك انطلق المجاهدون في حروبهم ضد الروس من خلال فهمهم لعقيدة الجهاد في سبيل الله الذي يعتبر ذروة سنام الإسلام .

الجنود يرتلون القرآن الكريم وهم يقاتلون الروس :

كان المقاتلون يتجهون إلى المعارك مع الروس وهم يرتلون القرآن الكريم ، وينشدون الأناشيد الدينية ، تقول الكاتبة الأمريكية لزلى بلانش في كتابها "سيوف الجنة" : (حرب المجاهدين هي حقبة الشريعة الإسلامية التي قام بإحيائها "شامل"وفرضها في شمال القوقاز واستخدمها كمصدر ضد الغزو الروسي ، إنها حرب شارك فيها جنود " شامل " من أجل الله ، وساروا لقتال الروس وهم يرتلون القرآن الكريم وأناشيدهم الدينية ، وكانت سيوفهم بالسبة لهم مفاتيح الجنة).

وضع الإمام شامل خطة هجومية لمحاربة الروس ، كبدت الروس خسائر فادحة، استمرت أكثر من ثلاثين عاما ، فتح فيها الحصون وغنم عتادهم ومؤنهم وذخائرهم ، وأخذ العديد منهم أسرى ، وقرر الروس إخضاعه خاصة بعد انتشرت أخباره إلى أرجاء أوروبا وأصبحت بطولاته رمزا ، ونظم فيها الشعراء القصائد ، ونجح الإمام شامل اجلاء الروس من معظم بلاد القوقاز وأنزل بالروس هزائم ساحقة، مما أثار الروس فدفعوا بقواتهم وحشدوا له جيشا قوامه ثلاثمائة ألف جندى ، وبدأوا بالهجوم عليه ، واستمر الهجوم من جميع الجهات طويلا الأمر الذى أدى إلى استنزاف قوات الشيخ شامل تدريجيا إلى أن سقط أسيرا عام ١٨٥٩م.، وعند ذلك أعاد الروس سلطة الأمراء العملاء

كي يتمكنوا من التغلب على العلماء الذين كانوا أساس المقاومة، وسرعان ما خلعوا الأمراء ونصبوا أنفسهم ، وأضاع الحكام الخونة ثمرة جهاد الإمام شامل ، بعد أن نال الإعجاب والتقدير من ألد أعدائه .

قال أحد القادة الروس الذين قاتلوا هذا الإمام المجاهد وأسروه :" **لولا وقوف هذا الشعب المقاتل في طريقنا ، لكنا وصلنا إلى النيل غربا ، وبحر اليابان شرقا بفضل القوات التي خصصناها للحروب القوقازية** " وكتب كارل ماركس عن بسالة الشيخ شامل، قائلا: " **أيتها الأمم اعتبري بما يمكنه أن يفعله الرجال في الحالات التي ترغب أن تبقى فيه حرة** ".

في مقالة نشرت عام ١٨٥١م بصف شاعر القفقاس الروسي **لرومنتوف** ، الذي شارك القوات الروسية في حروبها للقوقازيين ، ومكث في بلاد القوقاز أربع سنوات ، فيقول :" **القوقازي جسور كالجبل ، وجنتلمان كالإنجليزي ، ومعصوم كالولد** " .. ويقول في موضع آخر : " الروس يبررون فشلهم في حروب القوقاز بقولهم بأن أمامهم ثلاثة أعداء يصعب التغلب عليها : **المناخ ، والجبل ، والقوقازي** " .. ويستطرد في القول عن دفاعات الروس : " **أما عن وضعية القلاع المقامة على حدود البلاد فهي يانسة جدا ، ويحاصر القوقازيين هذه القلاع ، من كل جانب فلايوجد نجم واحد أو كومة حشيش أو التواء أرض إلا وتخفي قوقازيا باركا أو نائما ، وبندقيته على خده وإصبعه على الزند متهيئا لإرسال رصاصة إلى بعيد لا تخطئ أبدا أهدافها.**"

ويجسد لرومنتوف ، حب القوقازيين للجهاد المقدس ضد الروس ، وذلك في قصيدة، صاغها على صورة حوار بين نهر الترك الذي يصب في بحر الخزر وبحر الخزر فيقول : " افتح صدرك الرحب لأمواجي ! وها هي العطايا التي جلبتها لك .. اقتطعتها وأنا مار من ممر داربال فهي مليئة بالغرانيت لتسلي بها أولادك .. ولكن البحر يظل هادئا ، فليست هذه الهدايا التى ينتظرها البحر ، لذا فيردد له النهر ويقول : خذ هدية أخرى لعلها تعجبك أكثر .. هذه هي جثة شاب شيشاني من شباب كاباردیا الأبطال ، مات وهو يحارب الروس .. إن أسلحته غنية وذات قيمة عظيمة ، وطرزت على أطراف سترته آيات من القرآن .. أنظر إليه آثار البغض تلمع إلى الآن في عينيه .. (البحر لا يجاوبه) وهو بانتظار العطية التي يريدها ..عندئذ يقول له الترك : "ستكون مسرورا في هذه المرة ..هذه جثة امرأة قوزاق ..كم هي جميلة ..أنظر كيف يغطي شعرها الذهبي كتفها أنظر هذه الفتحة الصغيرة في صدرها والدم الأحمر يخرج منها حتى الآن .. إن القوزاق الذي كان يحبها لم يعد يبكيها فقد ركب حصانه وذهب مسرعا يرمي بنفسه مابين الشيشان محاربا للروس ."

وكتب كوبيفر رئيس البعثة العلمية التي كانت ترافق الجنرال عمانويل في غزوه لبلاد القفقاس تقريرا جاء فيه : " **لقد استولى الرعب علينا ، وتأكدنا من الخطر الذي سيهدد روسيا الجنوبية فيما لو اتحدت شعوب القوقاز يوما تحت قيادة واحدة** ".

لقد قاوم الشيخ شامل الطغيان والاستعمار الروسي في القوقاز من عام ١٨٢٤:١٨٥٩م. وأبدت شعوب القوقاز صلابة ورباطة جأش منقطعة النظير في التاريخ الحديث ، لذلك يعد جهاد المسلمين في القوقاز بعد اتحاد قادتهم ، ضد سيطرة النظام القيصري الدخيل من أعظم المفاخر التى سطرها تاريخ المسلمين ،لما لاقاه الروس من صعوبات لفرض سيطرتهم عليها ، وحين جعل الروس ضباطهم مستشارين عند الأمراء القوقازيين بعد فرض سيطرتهم واستسلام الأمراء مرغمين للسيادة القيصرية ثار الشعب القوقازي ضد أمرائه والروس معا ، وعندئذ تولى كبار العلماء زمام الأمور ، وتبنت الحركة الإسلامية شعار التحرر من ربقة السيطرة الروسية من جهة وشعار الاصلاح الاجتماعي والعودة إلى الأصول الإسلامية السليمة واستبعاد ما علق بها من الأدران الجاهلية الدخيلة .

نتائج حرب القوقاز الأولى :

كانت حرب القوقاز الأولى أطول حرب استعمارية خاضتها روسيا القيصرية ، بسبب المقاومة العنيدة والباسلة التى أظهرتها شعوب شمال القوقاز الإسلامية ضد الغزو الروسي القيصري .

كانت الحروب القوقازية مع الروس سببا من الأسباب الرئيسية في إضعاف الجيش الروسي ، وهذا ما يؤكده المؤرخ الروسي فادييف إذ يقول : " لولا الحروب القوقازية التي عاقت تقدم روسيا لاستطاعت الجيوش الروسية أن تحتل الشرق بأجمعه من مصر إلي اليابان وهي تسير علي نغمات فرقها الموسيقية ".

بعد سقوط الإمام شامل ، بدأ الروس سياسة الطرد والإبادة لشعوب القوقاز ، مما أدى بلى انخفاض سكان شمال القوقاز إلى ١،٦ مليون نسمة عام ١٨٩٧م بعد أن كانوا ٣,٢ مليون نسمة عام ١٨٦٠م. نتيجة الإجراءات الوحشية وسياسات الترويس وعمليات التهجير إلى سيبيريا التى قام بها الروس ، كما أنه كان لنجاح روسيا القيصرية في إحكام سيطرتها على شمال القوقاز ، العامل الهام الذي ساعد على احتلال الدول الإسلامية في آسيا الوسطى ، ففي الفترة ما بين ١٨٨١ :١٨٩٤. تم احتلال كازاكستان وأوزبكستان وقيرغيزيا وتركمانستان ، وهكذا في نهاية القرن التاسع عشر اتسعت مساحة الامبراطورية الروسية ، وصارت ٢٢ مليون نسمة ، وتضم تحت حكمها ثمانين شعبا في آسيا وأوروبا .